

الفصل الأول

في وداع الغارية

يتناول هذا الفصل الأفتتاحي الفترة من ١٩٥٣ إلى ١٩٥٤ و يقع في ثلاثة أقسام: أولها: وصف الغارية وقت الرحيل. وثانيها: صلات الغارية وعلاقتها. وثالثها: النزوح إلى الريان وملاحظة الفوارق بين أهل قطر.

تمهيد

الغارية في عهد طفولتي، هي الوطن حتى وأن ابتعدت عنها إلى حين. في محيط الغارية فتحت عيني على الدنيا عام ١٩٤١ بداية الحرب العالمية الثانية في ظروف معيشية صعبة، محاطا بمحبة الوالدة والوالد وأخواتي وخالاتي وأخوالي وأبنائهم، الذين فضلوني على أنفسهم أحيانا. كما حظيت بود بقية أقربائي وأهل الغارية عامة، وذلك لودهم لوالدي وباعتباري وحيد أبي وأمي من الصبيان آن ذاك.

كانت الغارية في مطلع طفولتي هي العالم بالنسبة لي، وفيها سجلت ذاكرتي أولى انطباعاتها على صفحة بيضاء لم يمض الزمن صورها. وفي الغارية تشكل ضميري ضد الظلم ومع السعي للإنصاف والمساواة، وبدأت شخصيتي تنمو وتبرز معالمها.

وقد سجلت انطباعات ذاكرة الطفولة تلك والإحداث التي مرت علي في العقد الاول من حياتي ونشرتها عام ٢٠٠٨، ولن أعود إليها في هذه الذكريات ولن أضمنها هذا الفصل الذي أودع فيه الغارية إلى عالم أوسع (١).

وداعي للغارية هذه المرة الذي أبدأ به كتابة ذكرياتي، ليس وداعا كما اعتدت ان أودعها عندما كنت أصحب والدي أيام الطفولة في تنقلاته بين الغارية والبحرين والمملكة العربية، وإنما هو وداع عند لحظة مغادرة الغارية إلى عالم أوسع سوف يشكل مسار هذه الذكريات.

لذلك علي واجب وصف الغارية لحظة وداعها وذكر علاقتها بمحيطها بقدر ما تسعفني الذاكرة اليوم، وفي ذلك محاولة وصف بقية قرى قطر في مطلع عصر النفط، وذكر أنواع العلاقات داخلها وبالمحيط.

خرجت مع والدي من الغارية في أواخر عام ١٩٥٣ وكان عمري حوالي ١٢ عاما، وذلك حين نزح والدي من الغارية إلى الريان أحد ضواحي مدينة الدوحة حيث يسكن حكام قطر آن ذاك. وقد كان عام الأنتقال عاما فاصلا في مسيرة حياتي، كما كان عاما فاصلا في حياة قطر وأهلها بشكل عام.

ففي هذا العام بدأ تأثير النفط على حياة القطرين يظهر بدرجات متفاوتة وفروق واضحة بعد أن ارتفعت صادرات قطر من النفط و سرى مفعول اتفاقية مناصفة الأرباح عام ١٩٥٢ بين الحكومة وشركة نفط قطر، وما صاحبهما من ضغوط وسياسات تم بموجبها تخصيص عائدات النفط بشكل أدى إلى توجه استهلاك عائدات النفط بدل استثمارها، فضلا عن تمييز بعض القطرين على معظمهم بشكل امتدت آثاره إلى يومنا هذا.

وصف الغارية وقت الرحيل

تقع الغارية على ساحل البحر شمال شرق قطر على بعد حوالي ٩٠ كيلو متر من الدوحة شمالاً، وكانت من قرى قطر الساحلية الرئيسية.

يحتضن الغارية جبلان صغيران من الغرب ممتدان من الجنوب إلى الشمال، بينهما مدخل واسع يمثل بوابة القرية من جهة اليابسة. يبعد الجبلان عن البحر مسافة تتراوح بين ٣٠٠ متر في الجنوب إلى ٥٠٠ متر في الشمال ويشكلان سوراً دفاعياً عن القرية، وربما كان وجودهما بالإضافة إلى عوامل طبيعية وتاريخية أخرى سبباً في سكن الغارية وعمارها في الماضي.

منع هذان الجبلان توسع القرية من حيث العمق، وليس لأهل الغارية إلا الأمتداد على طول ساحل البحر على مسافة تزيد على ٢ كيلو متر من الجنوب إلى الشمال، وهذا يناسب نشاطات السكان وتلبية حاجاتهم الملتصقة بالبحر، من حيث النشاط والترفيه و طرق المواصلات.

وجدير بالملاحظة التاريخية إن السكن على الساحل في حوض الجبلين في الغارية، كان نتيجة الحاجة لتوفير الحماية والأمن في حالة الغزو من البر. فهنا سكن في الماضي ونزح لسبب من الأسباب أناس كثيرون آخرهم بن عبد الوهاب من أهل دارين جد الشاعر محمد بن عبد الوهاب الفيحاني، الذي رمم قلعة قديمة في وسط الغارية وحاول الاستقرار فيها، إلى أن أخذت الغارية منه وسجل تاريخ "أوخيد الغارية" على الجبل الجنوبي.

بُني على أطلال القلعة منزل سيدة كريمة معروف ببيت المهندية شهدته في طفولتي وترددت مع أخواتي عليه لطحن القمح على الرحي حيث يجتمع فتيات القرية. كانت السيدة المهندية متزوجة من أحد البوكوارة واستقرت في الغارية مع أبنيتها الشابة. وقد شرح والذي لي أثار القلعة عندما أشار إلى اختلاف لون وحجم الحجارة التي بني منها بيت المهندية، واختلاطها بين حجارة سوداء كبيرة صلبة مقلعة من الجسر على ساحل البحر إلى حجارة صغيرة جيرية ملحا من مقلع بر الغارية.

وقبل بن عبد الوهاب مباشرة سكنت قبيلة الخليفات الغارية ربما بعد نزوحهم من الزبارة، ولهم آثار مقبرة تسمى مقبرة الخليفات خلف الجبل الشمالي. وذلك قبل نزوح الخليفات إلى الوكرة ثم الاستقرار في فريج الخليفات حيث أقيم اليوم فندق ومننزه شرق بعد أن "نزعت ملكية الخليفات للمصلحة العامة"، أسوة بعدد من الفرجان القديمة والمباني الجديدة في الدوحة.

على أطلال المساكن القديمة في الغارية بنى البوكوارة منازلهم حين نزح بعضهم من الفويرط بسبب نزاع بين فخاندهم، مستفيدين من الحصى المتبقي من المساكن القديمة. أما الابواب والأسقف فقد كان من عادة أهل قطر خلع الابواب والشبابيك وقشع الأسقف عندما ينزحون من قرية إلى أخرى أو من بيت إلى آخر، وذلك بسبب ندرة الخشب الذي كان يستورد من الهند في العادة، تاركين جدران المنازل لمن يرغب السكن بعدهم فيها.

سكن البوكوارة عند نزوح بعضهم من فويرط، جنوب الغارية بعد نهاية الجبل الجنوبي. أقاموا مباني جديدة ذات مساكن ومجالس جميلة مطلية بالجبص (الجبس)، قام ببنائها اساتدة بناء مهرة من عرب فارس كما يذكر والذي، مزينة بأسقف جديدة من خشب البانيو والمنجورور ملونة ومزخرفة، تعبيراً عن يسر الحال ورواج صناعة وتجارة اللؤلؤ في مطلع القرن العشرين.

كان ذلك في مطلع القرن العشرين قبل سنة الدالوب (الإعمار) عام ١٩٢٦ والذي أدى إلى طبع (غرق) سفن الغوص وتحطمها في سائر أنحاء الخليج. تلى تلك الكارثة الطبيعية كارثة تكنولوجية منذ عام ١٩٢٦، تمثلت في دخول اللؤلؤ الصناعي الياباني إلى أسواق اللؤلؤ الطبيعي بعد نجاح اليابان في استزراع المحار في بيئة مسيطر تقنيا عليها. تلاهما أيضا الكساد العالمي عام ١٩٢٩.

وقد أضرت تلك الأحداث الجسم تبعاعا بصناعة الغوص وأدت إلى تدني أسعار اللؤلؤ وقوضت الحياة الاقتصادية المزدهرة في قطر وعلى الساحل العربي من الخليج والتي كانت حتى عام ١٩٣٠ معتمدة على محصول اللؤلؤ الطبيعي ونشاطات الغوص والسفر المرتبطة به. كانت صادرات اللؤلؤ المصدر النقدي الوحيد لتمويل احتياجات المنطقة من السلع المستوردة وهي كثيرة.

من هنا كانت تلك المنازل في جنوب الغارية أفضل من مباني الغارية الحديثة التي بنيت منذ عام ١٩٣٠ بعد أن بارت تجارة اللؤلؤ وتدنت أسعاره وانعكس ذلك تدريجيا على حياة أهل الخليج كافة، حتى بداية تصدير النفط في كل بلد من بلدان المنطقة.

ومن بين المباني الجميلة في جنوب الغارية التي رأيتها بعيني غرفة علي بن شاهين حيث درسنا فيها القراءة والكتابة في أواخر الأربعينيات على يد معلم عراقي، وكذلك مجلس والدي الذي اعدنا ترميمه في عام ١٩٥٥ واتخذناه مقرا لنادي الغارية.

ويحسن بي من باب التوضيح، أن أقدم هنا قرأه مختلفة لما يقول به بعض ممن يدرسون أمارات الخليج العربي اليوم ويخلطون بين فترة تراجع صناعة الغوص، منذ الحرب العالمية الأولى إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، وبين اوضاع هذه المنطقة قبل ذلك بعقود.

نجد بعض الكتاب يقفزون إلى وفرة عصر النفط ورفاهيته ويقارنونها بتلك الفترة العصيبة من الفقر التي شهدتها الساحل العربي للخليج بين انهيار عصر الغوص وقبل بداية عصر النفط، دون أن يتوقفوا عند ما سبق تلك الحقتين من ازدهار اقتصادي نسبي شهده الخليج في عصر الغوص قبلهما. جاهلين أو متجاهلين عقودا وربما قرون من الحياة الاقتصادية المتوازنة المنتجة التي شهدتها المنطقة مقارنة بما يحيط بها من مناطق لم تكن تمتن الغوص.

أن أهل قطر وبقية مدن الساحل العربي من الخليج قبل الحرب العالمية الأولى، كانوا يعيشون حياة متكاملة منتجة متوازنة في عصر الغوص مزدهرة نسبيا. فقد كانت صناعة الغوص تدر دخلا نقديا وتحقق فائضا معتبرا نتيجة لارتفاع أسعار اللؤلؤ قبل الحرب العالمية الأولى مقارنة بتكاليف الحصول عليه.

قدرت صادرات اللؤلؤ من الخليج عام ١٩١٢/١٩١٣، بحوالي ٢ مليون جنيه أسترليني، في وقت كان فيه الجنية يساوي حوالي اربعة ونصف دولار امريكي. وبذلك قدر متوسط نصيب الفرد العامل الذي يركب الغوص بمبلغ ٢٧ جنيه أسترليني سنويا. وكان عدد من يركب الغوص في المنطقة ٧٤ الف رجل على ٤٥٠٠ سفينة. في وقت كان فيه كيس الرز البسمتي (حوالي ١٠٠ كيلو جرام) بحوالي سبع روبيات او نص جنيه استرليني تقريبا.

وبالنسبة لقطر فان عدد السفن كان ٨١٧ سفينة، ومن ركب الغوص من قطر قدر عددهم بحوالي ١٣ الف رجل وهذا يساوي ضعف عدد الرجال القطريين في سن ركوب الغوص في ذلك العام، مما يفيد بأن نصف من ركب الغوص من قطر قد أتوا من داخل الجزيرة العربية ومن عرب ساحل فارس (٢).

ولذلك كانت مدن وقرى الساحل العربي من الخليج عامرة وجاذبة لمن يريد ركوب البحر، تدل مبانيها وفنونها وموانئها وسفنها وحرفها ذات العلاقة بنشاطات البحر إلى جانب معرفتها وإدارتها وتجاريتها، بأن المنطقة كانت متقدمة نسبيا وعلى قدر من المستوى المعيشي والحضاري، كما تشير إلى ارتفاع الدخل النقدي للسكان وقدرتهم على استيراد احتياجاتهم وإنتاج ما تسمح به بيئتهم البحرية-البرية المتكاملة.

وإذا عدت لوصف الغارية في عام ١٩٥٣، فقد كان يقيم فيها قرابة مائة وثمانين عائلة يسكنون حوالي ٦٠ منزلاً من منازل العائلات الممتدة، فإذا افترضنا وجود ما بين ٤-٧ أشخاص في كل عائلة فهذا يعني أن تعداد سكانها في ذلك الوقت يقارب ١٠٠٠ نسمة (٣).

يوجد في الغارية مسجد جامع عند منتصفها على ساحل البحر تقام فيه صلاة الجمعة وكان خطيبه وأمامه حتى ١٩٥٠ هو خالي محمد بن يوسف، ثم بعد فقدان خالي في مكة المكرمة وانقطاع أخباره أثناء سفره للحج مع مبارك بن راشد الكواري المقيم في قرية الثقبه عام ١٩٥١، أصبح أمام وخطيب هذا المسجد من خارج الغارية وكان في نفس الوقت يدرس أطفال الغارية من الذكور القرآن الكريم.

وفي شمال الغارية يوجد مسجد آخر لصلاة الفروض، إمامه على ما أذكر ناصر بن أرحمه والمؤذن ناصر بن غيث. كما يوجد مصلى للعيد في الخلاء غرب جنوب المعترض يبعد حوالي ٦٠٠ متر عن الجبل الجنوبي، ويصلي مع أهل الغارية صلاة العيد فيه أهل الخريجة وعذبه. واذكر خروجنا فرحين قبل كل عيد بأيام لتنظيف المصلى وتحضيره لصلاة العيد.

انتعشت الغارية منذ عام ١٩٥٠، وفي عام ١٩٥٣ كانت مواسم الأعياد بهيجة تبدأ بالصلاة في مصلى العيد وبعد الصلاة يتجه المصلين لزيارة العائلات مبتدئين بأول بيت في الجنوب ومنتهمين بأخر بيت في الشمال، تستقبلهم أكبر نساء العائلة وترحب بهم وتقدم القهوة وما تيسر من أكالات حلوة مثل العصيدة والبلاليط (نوع من الشعيرية الرفيعة يطبخ محلى بالسكر ومبهر بالهيل) الذي عرفته الغارية حديثاً. وبعد انتهاء هذه الجولة والتي لا تستغرق أكثر من ساعتين يعود كل إلى منزله استعداداً لعيد والذي جرت العادة أن يقدم في ساحات معروفة للرجال وبيوت محددة للنساء، حيث يخرج كل بيت غداءه ويشارك فيه كافة الذين يتجمعون في الساحات والبيوت بعد حوالي ثلاث ساعات من صلاة العيد حوالي التاسعة صباحاً.

وفي عصرية العيد تقام العرضة ويقرع الطبل والطار وتتالى الشيلات حتى صلاة المغرب. ولا تخلو النهاية من عدد من الذين يكمررون ويسيطر عليهم الرقص حتى يشعر المشاهد بأنهم فقدوا وعيهم وأن الجن تلبس بعضهم وأصبح الواحد منهم يطلب شرب ماء البحر أو التهام الجمر.

وبعد صلاة العشاء يتجمع شباب الغارية في حلقة لغناء الخريسعاني (السامري) ويطرب الجميع لتلك الأغاني والألحان الجميلة وكان خالي راشد بن يوسف المشهور بعزفه على الربابة أيام الشباب، يقود بصوته الجميل وحسه الموسيقي الغناء. وأذكر أبيات من قصيدة كنت حفظتها يقول الشاعر في مطلعها:

يا داخل السوق ما شفت ابن جار الله مدين ويتفكر في المزايبي

أحسب أن المدين مخلص لله وأثرى المغربل يختل الناس بالديني

وكذلك تتجمع فتيات الغارية شرق جنوب الجبل الشمالي للمراة، وهي حلقة غناء تصطف البنات من ٨-١٤ سنة فيها صفيين متقابلين يرددن الأغاني الجميلة ويتميلن دون أن يصاحبهن طبل أو طارة. وكنا كأطفال مسموح لنا الذهاب مع شقيقاتنا. وأذكر أغنية كانت البنات يرددنها في حلقة المرادة تقول:

ياقهوة بالشارع وياك لو يستوي منك بعشرين

يازين ذاك الريم يقلاك يازين صبك في الفنايل

كانت أفراح أهل الغارية من أعياد وأعراس، بهيجة يقيم الرجال فيها العرضة وأمسيات الخريسعاني، ويلقى الرجال القصائد في الخلة عند زفتهم للمعرس. ويجتمعون على غداء العرس. وفي كثير من الأحيان يجتمعون قبل العرس

بمدة ويقومون ببناء دار جديدة في بيت المعرس للعروس، وتسمى الفزعة حيث يقوم الرجال بالبناء دون أجر، وحسب صاحب الدار أن يقدم لهم فطور وغداء.

كان وصول العاملين في دخان كل أسبوع في سيارة نقل يملكها على بن عمران ويسوقها ابنه محمد بن علي، مناسبة تضاهي مناسبات الأعياد والأعراس. المقيمون في الغارية فرحون بأبنائهم وأزواجهم والقادمون فرحين بالعودة للأهل محملين ببعض ما اعتادوا عليه في دخان من وسائل معيشة ومن عادات جديدة، المتزوجون منهم فرحون بقاء زوجاتهم، والعزاب يؤهلون أنفسهم للزواج من فتيات القرية وما حولها. وقد شهدت عدد من الزيجات الموفقة بعد أن ارتخت عادة زواج بنت العم من ابن عمها اللصيق وأصبحت عائلات الغارية توسع خياراتها وتقبل التزاوج بين عائلاتهما بعيدا عن عادة "حيار" ابن العم المباشر لبنت عمه ولو كان متزوجا.

ولعل عادة أولوية ابن العم في زواج ابنة عمه حتى لو كان متزوجا، هي التي حالت دون زواج الشاعر القطري المشهور محمد بن عبدا لوهاب الفيحاني الذي مات صريع العشق والحرمان بعد أن منع من الزواج بمن أحبها قلبه وتطلع للزواج منها.

ويقال أن الشاعر محمد بن عبدالوهاب قد ترك ديوان شعر مكتوبا بخط اليد، عند غانم بن جاسم الكواري، ولكن يبدو أن الديوان ضاع قبل ان يتم طبعه. لذلك فإن ما تم طبعه من قصائد بن عبد الوهاب هي ما تم جمعه من الرواة بعد وفاته بزمن. وقارئ شعر بن عبد الوهاب يلمس فيه الحزن تعبيراً عن ما آل إليه حاله من مرارة ويأس بعد فشل الوساطات المتعددة التي لجأ إليها والتي ينعيتها في احى قصائده " نوحى حمامة كل ما نحت والعى غريب وأنت يا حمامة قريبة". وذلك لان ابن العم اصر على الزواج ممن يماني بن عبد الوهاب النفس بالزواج منها وليس من مانع اجتماعي لقبوله زوجا لها، ولكنها العادات قد حالت دون زواج اشهر شاعر و محب عاشق في قطر بمن عشم النفس بالزواج منها من بنات الغارية.

وجدير بالتأكيد في ختام هذا الوصف، أن الغارية كانت أمنة دون وجود قوات أمن رسمية فيها، لا توجد بين أهلها نزاعات تذكر، ولا سرقات سوى ما قد يقوم به بعض الشباب الطائش من تصيد دجاجة أو خروف يقيمون عليه وليمة في قلب الليل، سرعان ما ينكشف أمرها وتسوى بين الكبار.

وجدير بالذكر أن الغارية لم يوجد فيها حتى ذلك الوقت مركز شرطة أو مأمور جمارك أو جباية من أي نوع، يسافر أهلها لجلب التمر وشراء احتياجاتهم إلى البحرين والقطيف والبصرة وأي مكان آخر دون جوازات ولا يدفعون جمارك أو إتاوات. وأول مركز حكومي اقيم على ساحل الغارية كان لخفر السواحل بعد عام ١٩٥٣.

صلات الغارية وعلاقتها

ترتبط الغارية بعلاقات اجتماعية واقتصادية داخل قطر وخارجها. ارتباطات عامة خارج قطر، وارتباطات وثيقة بالقرى المحيطة بها والقريبة منها في شمال قطر، خاصة القرى التي يسكنها البوكوارة (ديرة البوكوارة)، في دائرة قطرها يقارب ٣٠ كيلومتر، تبدأ بالقرى الساحلية تليها القرى الداخلية تليهما المنازل البرية حيث يقضون الشتاء في بيوت من الشعر.

يعتمد أهل الغارية على قرية عذبة في الغرب منها، لجلب ماء الشرب. وأشهر العيون العذبة هي عين اسماء، وهي وقف لسيدة كريمة من آلبنغيث والدة ناصر بن أرحمه، تليها في العذوبة عين علي بن عمران وهي حديثه تبعد عن عين أسماء ٣٠٠ متر فقط، ولكنها أقل عذوبة منها.

ويوجد في عذبة أيضا عدد من آبار المياه كلها خريج تستخدم لسقي الماشية ولزراعة النخيل وبعض الخضار والعلف، وأشهرها زرع بن رجب وهناك زرع لعبد الرحمن بن شاهين وزرع للمسلم. كما أن هناك زرع لوالدي في أبو الضواغظ بين الغارية وعذبة ومازال موجودا حتى اليوم، كان والدي يقضي موسم الشتاء فيه وقد زرع فيه القمح على مياه المطر بفضل خبرة زوجته الثالثة أم غيث سلامة قبل أن يتزوج والدتي، وقد نجحت زراعة القمح في بعض السنوات عندما تكون هناك امطار غزيرة تهطل في أواخر الخريف وفي موسم الشتاء.

ويذكر والدي في تفسير اختلاف عذوبة عيون وآبار متقاربة، بأن عيون الماء تعتمد عذوبتها على عذوبة الماء المتدفق إليها من مسارب سطحية تحت الارض، مختلفة العذوبة وفقا لتجمع مياه الامطار في مصادرها. ويقول والدي لذلك عندما يتم حفر عين ماء أو بئر، يقوم من يحفرها بتذوق ماء كل مسار أو نبع عندما يبدأ في التدفق، فإذا وجده عذبا وسع مجراه وان كان مالحا حاول أن يسده بالحصى ويمنع تدفقه أو يقلل منه.

يجلب الماء إلى الغارية من عذبة على ظهور الحمير. وكانت رحلة جلب الماء يقوم بها في الغالب نساء القرية أو بعض شبابها، ونذهب نحن الأطفال مع النساء للمتعة بالرحلة ربما لأننا لا نجد شيئا اخر نعمله. وعندما يصيبنا التعب من المشى كنا نجري أمام الورد (من يردون الماء) حتى نسبقهم بمسافة ثم نجلس نستريح حتى يلحقون بنا. ولا أظن أن ذلك الجري والاستراحة بعده تهون من تعبنا، إنما هو خداع للذات في زمن الطفولة.

وأذكر أنه خلال رحلة الورد من الغارية إلى عذبة وفي العودة، نمر في طريقنا على مساطيح ورياض تكون خضراء بالعشب أيام الشتاء والربيع، ولكنها في الصيف وبداية الخريف تكون صحراء ملحا قاحلة، لا عشب فيها ولا خضرة أو حياة.

والشجيرات الوحيدة التي تتحمل تلك البيئة القاسية في الصيف هي شجيرات العوسج التي تعيش على الطل أي ندى الرطوبة لعدة اشهر، وربما أكثر في زمن المحل وانقطاع المطر لعام أو أكثر. وكنت في داخلي عندما نمى وعي، اعجب من تغلب شكل شجيرة العوسج وإصرارها على الحياة وقدرتها على تحمل بيئتها القاسية، حتى إذا جاءت زخة مطر أخضرت وأثمرت مصعا لذيذا، بعد ان كانت موات او شبه موات.

ولعل صورة شجيرات العوسج في ذاكرتي وتقلب حالها بين الحياة والموت وقدرتها على تحمل منقطع النظير، هي التي جعلتني فيما بعد اصف الصامدين على مبدأ أو موقف مشرف في بلداننا التي تجور فيها السلطة المطلقة أحيانا على بعض المواطنين، بشجرة العوسج التي وحدها القدرة على التحمل والاحتفاظ بالحياة في بيئتنا الطبيعية القاسية، والتي هي صنو حياتنا السياسية ألقسى التي لا يحتملها سوى من هو شبيهه بالعوسج.

وجدير بالذكر ان الغارية لا يوجد فيها بئر ماء عذب او حتى خريج، لوقوعها على ساحل البحر ولم تنبت فيها نخلة او سدره او اي شجرة أخرى، لندرة الماء الصالح للزراعة. وأول شجرة زرعت في الغارية كانت سدره زرعت في فناء المدرسة الابتدائية بعد أن أصبح الماء يجلب في صهاريج للقرى حوالي عام ١٩٥٧.

يعتمدون أهل الغارية على السمك في طعامهم، وإلى جانب وسائل أخرى لصيد السمك الذي يحتاجونه، يعتمدون على مساكن مبنية من الحجر بارتفاع نصف متر، يقع أغلبها شمال الغارية على مسافة منها تتراوح بين 3-6 كيلو متر. تبدأ بمسكن محمد بن خميس ومسكن سالم بن حمد وتنتهي شمالا بمسكن السدير ومسكن البنيغيث اللذان يقعان في نصف المسافة بين الغارية وقرية المفجر. والمسكن شبيهة مع الفارق بالحضور التي تشيد من جريد النخل داخل ماء البحر في القطيف والبحرين حيث يزرع النخيل بكثافة.

وتقع شمال المساكن "المملحة" وهي منطقة منخفضة على ساحل البحر تتجمع فيها مياه البحر عند مواسم المد العالي ويتكون فيها الملح على شكل بلورات بحجم 1 سم تقريبا، نتيجة بخر مياه البحر في الصيف خاصة. وكانت هذه المملحة مصدرا للملح للمنطقة.

أما حجارة الجبس والطين الأبيض الرطب الناعم الصالح للبناء وربما لصناعة الفخار والبورسلان، فيوجدان في شمال غرب الجبل الشمالي. والطين الابيض في الغارية مثله في الاهمية مثل الطين الاحمر الذي اشتهرت به أم غويلينه واعتمدت أحياء الدوحة عليه في البناء قبل عصر النفط. وقد اعتمد أهل الغارية على هذه المواد في بناء مساكنهم حتى عام 1953، وبعد ذلك استخدموا الاسمنت والطابوق. ولا اعرف حتى الان أن كان قد تم مسح لتلك المناطق وما يماثلها من مقالع الطين الابيض في قطر، وتقييم مدى صلاحية الطين الابيض المشبع بالماء على دوران العام لصناعة البورسلان.

تجارة الغارية كانت مع البحرين أكثر من ما هي مع الدوحة، فرحلة السفينة إلى المحرق في البحرين تستغرق ست ساعات في العادة ورحلتها للدوحة تتطلب أكثر من اثناء عشر ساعة بالسفن الشراعية. هذا إلى جانب تعود أهل شمال قطر عامة على التعامل مع البحرين أكثر من تعاملهم مع الدوحة، وقد استمر ذلك حتى بدأ عمل الرجال في دخان وبدأت إمكانية السفر بالسيارة إلى الدوحة مباشرة او عن طريق دخان تتزايد.

ولعل كون الغارية هي أكبر القرى التي يسكنها البوكوارة، جعل منها مركزا تجاريا للمنطقة في تجارة التمر وبقية المواد الغذائية ومعدات البحر. وأكبر متاجرها يملكه علي بن عمران يليه دكان كل علي بن خليفة بن عجاج وناصر بن ارحمه وبخار التمر الخاص بجاسم بن محمد البنيغيث.

كما يوجد في الغارية عدد من سفن السفر ونقل البضائع المتوسطة أحدها لسعيد بن جمعه وأخرى لماجد بن عبد الله وثالثة لعجاج بن ربيعه ورابعة لمطر بن علي وخامسة لعلي بن عمران. وأخر سفن الغوص في المنطقة كان يملكها علي بن عمران وأسمها "الصير" ويركب الغوص منها عدد من أهل قرى الشمال كافة، ونوخاها عبد العزيز بن علي بن عمران.

تقع الفويريط أقرية الساحلية الشقيقة للغارية إلى الجنوب منها، وكذلك المرونة التي هاجر أهلها أو نزحوا منها منذ عام 1930 وكان يسكنها آل دلهم والزامل والعيسى من البوكوارة. وفي الداخل بالإضافة إلى عذبه توجد قرى الخريجة وعين سنان وأم الغيلم والغشامية والجذيع والخيسة، وصفية غرب فويريط والغنية غرب المرونة، وكلها قرى داخلية تبعد عن ساحل البحر من 1-4 كيلومتر مربع .

وتشكل مجموعة هذه القرى بالإضافة إلى منازل برية تبعد عن البحر من 3-10 كيلو متر، ديرة البوكوارة الممتدة على ساحل البحر من المملحة شمالا حتى أم خانف وجبل سميك في الجنوب، و تقدر مساحتها بحوالي 300 كيلو متر مربع.

وبالإضافة إلى هذه المنطقة يسكن البوكورة قرية سميسمه وقيلها الضعابين وكذلك مدينة الدوحة بالنسبة لعائلات منهم لم تغادرها في أواخر القرن التاسع عشر. هذا فضلا عن عدد من النازحين طلبا للرزق أو المستقرين، يسكنون المحرق والرفاع الشرقي والحد في البحرين والمنطقة الشرقية في المملكة العربية.

استقر البوكورة في فويرط والمرونة والغارية وتوابعهما، ربما منذ منتصف القرن التاسع عشر بعد أن نزحوا من الدوحة والضعابين وقيلها من الزبارة عند خرابها، بسبب صراع القوى الإقليمية فيما بينها، وصراعهم جميعا مع البحرية البريطانية على الزبارة في القرن التاسع عشر، حيث تركها سكانها عند خرابها إلى الدوحة وبقية أنحاء قطر.

وكذلك نجد لكل من قبائل قطر دبرتها التي تتكون من قرى ساحلية يركبون البحر منها وقرى داخلية يتخذون منها مصاييف لبهائمهم حيث يتوفر الماء الصالح للشرب وسقي الماشية أما المياه العذبة فهي نادرة. هذا إضافة إلى منازل برية يقضون فصل الشتاء بها بدو رحل. وربما تكون ديرة المهاندة في الشمال من ديرة البوكورة هي الأكثر شبها والأقرب مساحة وعدد سكان، بديرة البوكورة في شمال قطر.

ففي شمال ديرة البوكورة على سبيل المثال، نجد جنوب الخيسة قرية داخلية اسمها المشرب تسكنها قبيلة الكعبان وهي على صلة قوية بالبوكورة. ثم تبدأ ديرة المهاندة جنوب ديرة البوكورة - بعد أطلال الحويلة- في الخور والذخيرة وتوابعهما من القرى الداخلية والمنازل البرية الشتوية التي يسكنها حلف المهاندة، منذ أن نزحوا من الجميل والخوير في شمال قطر.

علاقة الغارية قوية مع قرية المشرب التي يسكنها الكعبان في الجنوب من قرى البوكورة وأذكر منهم العجلان وبن هندي وبن جبران. الكعبان جيران البوكورة الاقربون وعلى صلة وثيقة بهم وبقراهم.

وبقية صلة الغارية في تلك الفترة خارج محيطها من قرى البوكورة، كانت إلى الشمال منها ابتداء من قرية المفجر (المفير) لأنها الأقرب مسافة لها، و كان فيها من الرجال المعروفين علي بن صالح الفضاله، وكان أعمى و لكن صاحب بصيرة وذا طبع مرح و محبوب. و أذكر انه إذا جاء الغارية يحتفي به الناس ويسعدون بلقائه.

تليها قرية الرويس على الواجهة الشمالية من شبه جزيرة قطر، غرب راس ركن. وكنت أسمع عن الشيخ حسين بن صالح السادة وعلي بن محمد السادة من أهل الرويس وهم سادة من سلالة بني هاشم كانوا لا يتزاجون مع غيرهم بما أثر عليهم وجعلهم اخيرا يفتحون على غيرهم اسوة ببقية قبائل وعائلات قطر. ويعتبر الشيخ حسين بن صالح مفتي الشمال وله مكانة واحترام وتقدير، يعود إليه اهل الشمال عند الحاجة للاستفسار حول المسائل الدينية على المذهب المالكي وطلب العلم في الاحساء لدى آل مبارك علماء المذهب المالكي.

ومن الطرائف بين الرويس والغارية أن امرأة من أهل الرويس انتقدت البوكورة لأنهم يطلقون أسماء جمعه وخميس وسبت على بعض رجالهم، فردت عليها خالتي لولوه بنت يوسف قائلة " ماذا نعمل اخذتم أسماء الشهور وأطلقتموها على الرجال عندكم، مثل شعبان ورمضان ورجب فلم تتركوا لنا سوى أسماء الايام. وخالتي لولوه و أبنها جاسم بن علي (ولد علي) معروفان بالفكاهة وسرعة البديهة ولهما طرائف يعرفها أهل الغارية ولا يتسع المقام لذكرها .

والمناعة في أبوظلوف تربطهم علاقة طيبة مع فويرط والغارية ومن أشهر أهل أبو ظلوف الذين كنت أسمع عنهم في صغري، المرحوم حمد بن سالم المناعي وهو رجل كريم وفاضل يعتبر كبير المناعة في أبو ظلوف. وكذلك علي بن عمر الذي تعرفت على أبنه عمر بن علي في دخان وعبد الله بن مطر الذي تزوج من الغارية بنت هلال بن طارش. وربما نزح عدد كبير من المناعة من الدوحة إلى البحرين واستقروا بها وأصبحت لهم قرى مثل قلالي إضافة إلى سكنهم في المحرق، وكانوا أهل بحر منهم نواخذة وطواشين وبحارة ولهم في فنون البحر نصيب كبير.

كانت عمتي نجلاء متزوجة من محمد بن زيد من المناوعة انجبت منه صالح وسعيدة آل بن زيد قبل أن يتوفي زوجها وتعود لفويرط حيث يقيم جدي علي بن صالح الذي زوجها مرة أخرى لناصر من البغيث وانجبت منه بنت عمتي ميرة بنت ناصر زوجة حمد بن شاهين البغيث.

ويذكر والدي قصة خلاف جدي علي بن صالح مع البغيث عندما قرر أن يزوج ابنته الصغرى لولوه لسلطان بن مبارك بن فهد البورايح، فقد احتج البغيث وأعلنوا "حيار" لولوه وهددوا جدي بالقتل لأنهم أقرب من البورايح له، وبالتالي لهم حق "حيار" عمتي لولوه، ولكن جدي لم يعيرهم بالا لأنه اعطى كلمة للبورايح وهم أبنا شقيقته وأحفادها. اتفق جدي علي بن صالح مع البورايح على أن يزوج سلطان خلال موسم الشتاء، عندما يترك الجميع القرى الساحلية ويشدون للبر، وقد كان له ذلك. وبعد أن هدأت الخواطر زوج ابنته الكبرى نجلاء التي توفي زوجها لناصر البغيث، كما سبقت الإشارة.

وبعد المناوعة في ابو ظلوف في شمال قطر، تقع مساكن الكبسة في العريش والخوير والجميل، وأكثر من كنت أسمع عنه في ذلك الزمن الشاعر لحدان بن صباح الذي تتردد قصائده في خلة الاعراس وأكثر من يحفظها هو الشاعر سالم بن خليفه بن عجاج.

و في قرية عين محمد التي تقع على بعد حوالي ٢ كيلو من قرى الكبسة في الداخل جنوبا، يسكن محمد بن بحر من قبيلة النعيم. تليها قلعة الزباره حيث يقيم عبد الهادي بن زابن الدوسري مع عدد من الفداوية لحراستها منذ نهاية حرب الزباره في عام ١٩٣٦. وكان البوحسين من قبيلة البوعيين قد سكنوا العوينة في شمال قطر. وتسكن فخاند من النعيم غرب قطر من أم الماء والغويرية شمالا حتى زكريت ومناطقة أم باب جنوبا.

كان لكل قبيلة أو عائلة في شمال قطر قرية أو قرى ساحلية وأخرى داخلية ومنازل شتوية. وكذلك الحال أيضا بالنسبة لبقية أهل قطر في الوسط والجنوب والغرب من شبه جزيرة قطر، لكل قبيلة أو عائلة أو جماعة قراها أو أحيائها في مدينة الدوحة، ولها منازل شتوية يشدون إليها بعد موسم الغوص.

فأهل قطر في معظمهم، أهل بر وبحر ليسوا من البدو الرحل أو الحضر الخالص لهم في حياة البر نصيب مثل نصيبهم من حياة البحر. عادات أهل قطر مرتبطة بحياة البحر وحره وحياة البر ونشاطاته أيضا، لهجة تميم التي تنطق الجيم ياء هي لهجة أهل قطر بشكل عام قبل عصر النفط والوفرة، وذلك قبل تنكّر البعض للغوص ومهن البحر.

وقليل من أهل قطر هم من لم يركب أجدادهم الغوص أو يمتهنوا مهن البحر. ولذلك فأن التقعر في البداوة وإنكار الصلة بحياة البحر التي نجد ميلا إليها اليوم عند البعض، ليست هي سمة من سمات أهل قطر قبل ١٩٣٠ في عصر الغوص، فأغلبيتهم العظمى أهل بحر وبر، والبدو الرحل بينهم قليلون.

أما المذهب السائد في شمال قطر فهو المذهب المالكي وكان طلاب العلم الشرعي يذهبون لدراسته في الاحساء عند آل مبارك ومن بينهم خالي محمد بن يوسف أمام وخطيب الغارية ومحمد بن راشد أمام الفويرط وخطيبها وصديق السيد حسين بن صالح في الرويس، وهو شقيق سالم بن راشد وشقيق أولى زوجات والدي التي توفيت هي وابنها عند الولادة في فويرط، وبعدها نزح والدي للسكن في الغارية .

من هنا يمكننا القول أن قطر في مرحلة ما قبل امتياز النفط حوالي ١٩٣٠، كانت أشبه بفيدرالية تتكون من تجمعات قبلية على شكل مجموعات قرى منفصلة جغرافيا وقبليا، لكل قبيلة منازلها وهي الكفيلة بإدارة شئونها دون رعاية اقتصادية أو تدخل من حكومة مركزية، خاصة من مدينة الخور شمالا. فقبائل قطر وعائلاتها في الماضي منفصلة عن بعضها حتى وأن سكنت منطقة واحدة، تجتمع عندما يكون هناك خطر يحيق بشبه جزيرة قطر من البر أو البحر، ومعاركهم ومواقفهم في هذا الصدد معروفة. وقد تعرضت في كتابي "تنمية للضياع .. أم ضياع لفرص التنمية" (٤) لنشأت المجتمع القطري والتغيرات التي مر بها. فالمجتمع القطري نشأ قبل نشوء سلطة مركزية فيه، وتغير السلطة في قطر أو جزء منها لم يؤثر في وحدة المجتمع القطري في الماضي.

وفي تقديري أن سلطة حكومة مركزية في قطر ربما على مر العصور، لم تمارس إلا عند ما بدأ تطبيق اتفاقيات التنقيب عن النفط عام ١٩٣٤ وحرب الزبارة عام ١٩٣٦. أما مفهوم الشعب القطري فإنه لم يظهر بشكل محسوس إلا بعد اكتشاف النفط وتجمع أهل قطر من كافة الأنحاء للعمل في صناعة النفط عند رب عمل واحد هو شركة نفط قطر والمقاولين العاملين لديها، الأمر الذي جعل العاملين في صناعة النفط يتضامنون في مواجهة الشركة ويشكلون حركة عمالية نشطة تطورت منذ بداية خمسينيات القرن العشرين، لتصبح جزء من حركة وطنية شاملة ذات مطالب اقتصادية واجتماعية وسياسية عامة تجلت في حركة ١٩٦٣ الوطنية، والتي تركزت في مدينة الدوحة في تواصل مع عمال النفط في الحقول البرية والبحرية.

ولعل تواصل القطريين من مختلف المناطق وعودة النازحين منهم منذ بداية خمسينيات القرن العشرين، قد صاحبه تزايد الوعي وإدراك متزايد للفوارق التي أدى إليها تدفق عائدات النفط وسياسة تخصيصها. ولذلك بدأت بعض قبائل قطر وعائلتها منذ أن شعروا بالفوارق نتيجة سياسة تخصيص عائدات النفط، تطالب بنصيب وتضغط من أجل تخصيص عادل لعائدات النفط.

وقد شهدت في عام ١٩٥٣ اجتماعا حضره البوكوارة من جميع القرى ومنهم علي بن شاهين من عذبه وخليفه بن ناصر (بن طوار) من فويرط وعلي بن عمران عن الغارية ومن يلونهم في السن والمكانة وكان والدي ومعظم أهل الغارية وبقية قرى البوكوارة حاضرون .

كان موضوع الاجتماع هو كتابة رسالة للشيخ علي بن عبد الله حاكم قطر يطالبونه فيها بنصيب من دخل النفط بعد أن وصل لعلمهم ان الحكومة خصصت جزء من عائدات النفط لإفراد اسرة ال ثاني. وقد تعاهد بناء على طلب الحضور، كل من علي بن عمران وعلي بن شاهين وخليفه بن ناصر على أن يكونوا يدا واحده، وان تكون حقوق الجميع متساوية لما سيحصل عليه أبناؤهم. وقد تم العهد وكتبت عريضة على ورقة وبقلم ومحبرة قدمتها للحضور بأمر من والدي، وكان الاجتماع غرب بيت العجلان في ظل جدار منزلهم وفي ظل في الضحى.

تم تقديم تلك العريضة للحاكم في قصره بمدينة الدوحة بعد عدة أيام، مما جعل الحاكم يلتقي بممثلي البوكوارة وأولهم علي بن عمران وعلي بن شاهين وخليفه بن ناصر، حيث أحتد النقاش بينهم عندما سألهم الحاكم قائلا كما يروي أحد الحاضرين، فيما تطالبونني فيه ؟ هل لكم ورثة لدي؟ ، فقالوا له نطالبك بنصيب من خزائن الارض، قاصدين البترول وعائداته.

على أثر تلك المشادة بين الحاكم ومن معه وبين البوكوارة، تم أحتجاز الثلاثة الكبار لوضع ساعات تأزم فيها الوضع قبل أن يعرض عليهم الحاكم " جواعد" سنوية " (أعطيات سنوية) متوسطها ٥٠٠ ربية في السنة. وقد قبل القوم فرحون أو مضطرون، دون ان يعلموا كم هي الرواتب الاخرى أو كم هي عائدات النفط التي يطالبون مع بقية أهل قطر بنصيب فيها.

وقد جرت تلك "الجواعد" لكافة أهل قطر عندما طالبوا بها تدريجيا وإنشاء لها ديوان وسجل، وظلت ثابتة حتى تخلت عنها الغالبية العظمى من شعب قطر بعد أن أدرك الشعب أن حقوقه تتعدى تلك العطايا (الجواعد) الزهيدة، وعليه ان يطالب بحقوقه كشعب وليس كعائلات وقبائل، وذلك عندما اشتد عضد الحركة الوطنية في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين.

هذه ذكرياتي عن الغارية وأنا أودعها في عام ١٩٥٣، وقد اسهبت في وصف الغارية وذكر أهلها وحياتهم وعاداتهم في تلك السنة الفاصلة، باعتبارها نموذجا لقرى قطر وجمال الحياة فيها بالرغم من شظف العيش آن ذاك (٥) .

ولعل ذلك الوصف وتلك الذكريات تقرب صورة الماضي الذي اندثر بعد ان اندثرت قرى قطر وأحيائها وأصبحت الاجيال الجديدة لا تعرف إلا ما ترى، وتجهل ان في قطر مجتمع متصل الوجود، على افراده وجماعته ان يتواصلون وان يعرف الجيل الجديد شيئاً عن الماضي بما فيه من شطف العيش وقوة العلاقات الاجتماعية والتعاقد والفرعة، في وقت اصبح فيه القطريون مجرد أقلية في بلادهم، ليسوا اكبر الاقليات كما تشير الاحصاءات اليوم بل ربما يقعون في المركز الثالث من حيث العدد بين الجاليات التي يتكون منها السكان، والخافي أعظم.

٣-١

النزوح إلى الريان وملاحظة الفوارق

في أواخر عام ١٩٥٣ قرر أبي أن يترك الغارية، حيث بدأ يرى أن المستقبل له ولنا يتطلب الانتقال من الغارية وتأسيس حياة جديدة في الدوحة. وبذلك كان والدي من أوائل من هاجر من الغارية إلى الدوحة.

وبعد ثلاث سنوات تنابعت الهجرة من الغارية إلى الدوحة بشكل متصاعد، لأسباب مختلفة من بينها تأجيل مندوبي الحكومة للصراع بين أهالي قرى الشمال عامة والغارية ومحيطها خاصة. وذلك بسبب خلافات نشأت نتيجة لتضارب المصالح الناشئة عن مشروعات حكومية صغيرة في قرى الشمال صاحبها مع الأسف، تناحر بين الأفراد والعائلات على من يأخذ الفرصة منهم في العمل في تلك المشروعات، مثل بناء مدرسة او تعمیر مسجد او نقل الماء بالصهاريج أو الطلاب إلى المدارس القريبة. هذا فضلا عن انعدام فرص العمل وكسب الرزق محليا وغياب خدمات الطرق والكهرباء والماء والصحة، وتأخر فرص التعليم مقارنة بالدوحة.

وقد أدى هذا النزوح الفردي والجماعي إلى خراب معظم قرى شمال قطر تحت سمع وبصر الحكومة، حتى لم يبق في الغارية على سبيل المثال في ستينيات القرن العشرين، سوى ثلاثة بيوت انتقل ساكنوها فيما بعد إلى مدينة الشمال، بضغط من الحكومة ونتيجة تهديد من بقى من السكان صامدا، بقطع الخدمات الحكومية عنهم وأهمها نقل الطلاب إلى مدارس القرى الأخرى وتوصيل مياه الشرب، تاركين الغارية التي كانت عامرة بأهلها خرائب وأطلال حزينة.

وبالمناسبة والدي الذي كان يناهز الستين عام آن ذلك، لم يتزوج بعد وفاة والدتي زوجته الرابعة، حتى وقت استقراره في الدوحة، حيث تزوج اربع نساء فاضلات أخريات طوال ما بقى من عمره المديد الذي زاد على مائة عام. كما أن والدي لم يستقر لفترات طويلة في الغارية منذ أن تركها مع عائلته إلى البحرين عام ١٩٤٧، وإنما عاد إلى الغارية بعد وفاة والدتي في البحرين لتكون بين الأهل وسافر إلى البحرين والمملكة العربية وأخذني معه، حتى عودتنا النهائية عام ١٩٥٢ لتكون مع أخواني والأهل في قطر.

وكذلك فان ولدي لم يكن يرغب الالتحاق بشركة النفط في دخان، وإنما كان ينتظر الوقت المناسب ليختار مكان استقراره ويتزوج ويلم شمل العائلة. كان والدي أثناء إقامتنا القصيرة في الغارية وفي الريان ينفق من مال وفره من بيع بيت ومتجر كان يملكه ويديره في الثقبه بالمملكة العربية. وعلى ما أذكر فإن المبلغ الذي عاد به من الثقبه كان أكثر من ١٠ آلاف ريال سعودي وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت، كفاه إلى حين .

في أواخر عام ١٩٥٣ وبعد زيارات متقطعة للدوحة والريان لزيارة، محمد بن سلطان البورايح وإخوانه والتشاور معهم، قرر والدي أن تنتقل مؤقتا إلى الريان بعد أن رتب السكن بجوار أقربائنا البورايح وبمعرفةهم في الريان القديم .

أخذني والدي معه كالعادة، وحال وصولنا إلى الريان أرسلني إلى مدرسة الدوحة الابتدائية، و بعد الاختبار تم التحاقني بالصف الثالث تمهيدي (الثالث ابتدائي) لمعرفتي القراءة والكتابة. وقد كانت تلك المدرسة هي المدرسة الابتدائية الوحيدة في قطر، تقع في شرق الدوحة في ذلك الوقت وهي ما زالت مدرسة ابتدائية تدعى اليوم مدرسة خالد بن الوليد .

أول ما لاحظته عند استقرارنا في الريان هو الفرق بين نمط الحياة وطبيعتها في الريان مقارنة بالغارية واختلاف طبيعة العلاقات بين سكانه عن ما عهدته في الغارية. فالريان مجتمع تراتبي و الفروق الاجتماعية والاقتصادية بين سكانه كبيرة وظاهرة. فهناك الشيوخ من آل ثاني وهم أيضا درجات، لهم المكانة الاجتماعية الأعلى والنفوذ ويتمتعون بمستوى معيشة عال جدا يدعو للترف مقارنة ببقية أهل قطر، يسكنون في قصور أو بيوت كبيرة جديدة متميزة عن بقية سكان الريان بسبب الرواتب التي يتقاضونها من عائدات النفط والعطايا والهبات من الحاكم ومن خلال الخدمات الحكومية المجانية التي تقدم لهم، محاطين بالكثير من الخدم والفاخرة والاحويا، سياراتهم فاخرة وجديدة، وشبابهم متمتع بما لديه دون حاجة لعمل او عناء الذهاب للمدرسة في الدوحة.

كانت هناك قلة من أهل الريان يرتبطون بنسب قديم أو جديد مع آل ثاني أو جيرة قديمة، أما اغلب سكان الريان بعد ذلك فهم من العاملين لدى آل ثاني أو المعتمدين في معيشتهم عليهم. وجدير بالذكر إن الريان في ذلك الوقت كانت ضاحية موحدة من ضواحي الدوحة وهي ما عرف فيما بعد بالريان القديم قبل أن يؤسس الشيخ علي الريان الجديد ويتخذها سكنا له ولابنه الشيخ أحمد بن علي.

ولأهمية نمط تخصيص عائدات النفط في قطر ومخصصات الاسرة الحاكمة خاصة وما لهما من تأثير على الفروق الاقتصادية والاجتماعية التي صدمتني في الريان فضلا عن تأثيراتها على أحداث قطر وأوضاع أهلها خلال الفترة التي تغطيها هذه الذكريات، ربما يكون من المفيد أن أتوقف هنا في وقت مبكر من هذه الذكريات عند المعلومات التي اتاحت منذ فترة من خلال المصادر البريطانية، لأشير إلى بعض الظروف والضغوط التي تم فيها تخصيص عائدات النفط في قطر والجدل الذي اثير حولها عند بداية تخصيصها في مطلع خمسينيات القرن العشرين.

في ١٥ أكتوبر ١٩٥٢ كتب المعتمد البريطاني في قطر C.T.E Ewart-Biggs إلى المقيم السياسي في الخليج في البحرين، يفيد به بان حاكم قطر قدم الان مقترحه بخصوص العلاوات التي تدفع لإفراد الاسرة الحاكمة من ميزانية الحكومة. ويذكر المعتمد أن العلاوات المقترحة تبلغ ضعف العلاوات السابقة. العلاوات السابقة كانت ٢٧ لك روبية (مليونان وسبعمئة الف روبية) أو ٢٠٣ آلاف جنيه أسترليني. أما العلاوات المقترحة فتبلغ الان ٥٣،٥ لك روبية (٥،٣٥ مليون روبية) أو ٤٠٣ آلاف جنيه أسترليني.

ويتوصل المعتمد بان المبلغ المقترح تخصيصه من خزينة الحكومة يناهز ١١% من إجمالي نصيب قطر من عائدات النفط، وإذا أضيف له الربع المخصص للحاكم مباشرة من عائدات النفط، فان المخصص للأسرة الحاكمة سوف يفوق ثلث عائدات الدولة من النفط. ويضيف المعتمد قائلاً أن المشكلة أيضا هي في إصرار الحاكم على دفع علاوات الاسرة الحاكمة من خزينة الحكومة بعيدا عن ربع عائدات النفط المخصصة له (٦) .

ويلاحظ من رسالة المعتمد البريطاني أنه يتخوف بحق، من نمو علاوات الاسرة الحاكمة التي تدفع من ميزانية الحكومة، ويقترح ان تتركز المناقشة مع الحاكم من قبل المقيم السياسي في الخليج حول وجود مخصص واحد للأسرة الحاكمة (كما هو الحال في البحرين والكويت)، بحيث يتم صرف علاوات الاسرة من ذلك المخصص الموحد بمعرفة الحاكم بعيدا عن ميزانية الدولة.

ويبدو ان المعتمد يعتقد ان ربع عائدات الدولة من النفط المخصص للحاكم - في ضوء ارتفاع عائدات النفط في قطر نتيجة لتزايد الانتاج أن ذاك وسريان اتفاقية مناصفة الارباح بين حكومة قطر وشركة نفط قطر-، سوف يمكن الحاكم من دفع علاوات افراد الاسرة من الربع المخصص له، ويبقى له ما يكفي حاجته ويزيد.

ويضيف المعتمد قائلاً، ولكن أخذ موافقة الحاكم على ان يدفع علاوات افراد الاسرة الحاكمة من الربع المخصص له، يحتاج إلى وضع اقصى ضغط مطلوب يجعله يوافق على ذلك. وفي تقدير المعتمد أن لا شيء يمكنه تحقيق ذلك الضغط على الحاكم إلا تهديده مباشرة بالخلع (٧)

وفي هذا الصدد أيضا يذكر J.W Cummins وهو خبير عينه المستشار الانجليزي لحكومة قطر لكتابة تقرير حول حسابات وتنظيم حكومة قطر في الفترة من ١٩٥٠-١٩٥٢، ان حكومة قطر استلمت اول عائدات من صادرات النفط عام ١٩٥٠ بعد ان تم تصدير النفط في عام ١٩٤٩، حيث بلغت عائدات النفط في الفترة من ١٩٥٠-١٩٥٢ اربعة وسبعون مليون روبية، كان نصيب الخزينة الخاصة للحاكم منها (مخصصات حاكم قطر ٢٥% من عائدات الدولة من صادرات النفط) حوالي ١٩ مليون، والاحتياطي العام للحكومة المستثمر في بريطانيا ٣٢ مليون، أما مصروفات الحكومة خلال هذه الفترة فكانت ٢٤ مليون ربية فقط، متضمنة رواتب أفراد أسرة آل ثاني والتي أصبحت تخصص مباشرة من ميزانية الحكومة. وبالتالي فان حصة الحاكم وبقية أفراد أسرة آل ثاني بلغت حوالي ٣١% من إجمالي عائدات النفط للفترة من ١٩٥٠-١٩٥٢.

وقد ارتفعت حصة الحاكم وبقية أفراد الأسرة الحاكمة، نتيجة تزايد مستحقي الرواتب من أفراد الأسرة وارتفاع مستوى الرواتب أو العلاوات، إلى ثلث عائدات النفط في ١٩٥٣. ويضيف الخبير أن النية عند المستشار الانجليزي الذي له حق التوقيع على الشيكات الصادرة من حكومة قطر إلى جانب الحاكم، متجهة أن تظل عند مستوى الثلث هذا على أن يخصص الباقي للنفقات الحكومية بعد أن يتم توجيه ربع العائدات للاستثمار في بريطانيا كاحتياطي عام استثماري (٨).

ومما هو جدير بالذكر أن تخوف المعتمد البريطاني ومن وراءه المستشار البريطاني الذي يرأس الادارة الحكومية في قطر حول تصاعد مطالبات أفراد الأسرة برفع الرواتب والتوسع في عدد مستحقيها كان في محله، الأمر الذي أدى إلى تصاعد نسبة حصة الأسرة الحاكمة من عائدات النفط سنويا وتضاعفت المبالغ المخصصة لها طوال سنوات خمسينيات القرن العشرين حتى بلغت نصف عائدة الدولة من النفط في ١٩٦٠ (٩). هذا بالرغم من الزيادة الكبيرة التي شهدتها عائدات الدولة من النفط في قطر خلال تلك الفترة.

في هذا الوضع والمكان الذي تنعدم فيه مصادر المساواة وتبرز الفروق الشاسعة بين سكان الريان على عكس الوضع في الغارية، وجدنتي أنزوي حيث نسكن في فريج البورايح، لا تتعدى علاقتي سكان الحي الصغير الذي يكاد أن يكون قرية منفصلة عن مركز الريان، شبيهة بالغارية إلى حد كبير.

ولذلك فأُن ذكرياتي الأخرى عن الريان باهتة ومعيشتي فيها قصيرة لا تتعدى أشهراً معدودة، كانت نفسي أثنائها متعلقة بالغارية وأهلي فيها وأخواتي الذين ما زالوا هناك بعد أن التحق بنا في الريان شقيقي يوسف، في انتظار استقرار والدي في الدوحة.

ولعل الذكرى الراسخة في ذهني في بداية إقامتنا في الريان، كانت في نهاية موسم الشتاء عندما خرج أهل فريج البورايح، نساء وأطفال وبعض الرجال في الليل لجمع الجراد الذي غزا الريان وما حولها، ربما بسبب وجود مزارع تحيط بالريان. ذهبنا قبل الفجر بقليل، عندما نزلت درجة الحرارة وسقط الندى فأصبح الجراد مترامكاً على الأرض عاجزاً عن الطيران بسبب الرطوبة والبرودة في آخر موسم الشتاء. عندها بدأنا نملئ الأكياس الكثيرة التي جئنا بها، بالجراد حتى طلوع الشمس. وأذكر أنني كنت أردد أبيات من الشعر مفررة علينا يقول مطلعها:

مر الجراد على زرعي فقلت له ... لا تأكلن ولا تشغلن بإفساد

و بعد العودة فرحين بغنيمة الجراد، بدأ الناس في سلقه في الماء والملح وتجفيفه ليؤكل فيما بعد. وقد كان جراد ذلك الزمن سمينا وشهيا لم يتعرض للمبيدات كما هو الحال الان، فأكلناه مثل أكل المكسرات بعد أن جف، منتقمين منه بحجة اعتدائه على المزارع والأشجار!!.

وإذا عدت للحديث عن المدرسة فإن ذاكرتي لا تسعني بما يستحق الذكر. بدأت كعادتي منذ اللحظة الأولى ادرس بجد استعداداً لامتحان آخر العام الذي لم يعد بعيداً وإنما بعد بضعة شهور. مواد الدراسة بعضها سهل لأنني كنت وقتها ختمت القرآن الكريم وجودته وتعلمت الكتابة والحساب عند معلم عراقي ساقته الظروف إلينا في الغارية ربما هرباً من اضطهاد في العراق، ولكن هناك موضوعات ومواد لم ادرس اسسها ولا اطلعت عليها وكان علي ان اعتمد على صبر اساتذتي ومساعدة زملائي.

لا اذكر أسماء زملائي من الطلاب ولا أسماء المدرسين ولا مضمون المواد الدراسية، وأذكر فقط ان مدير المدرسة اسمه فهمي الحموري من فلسطين، ربما لأن الفترة التي قضيتها في المدرسة قصيرة لم تسمح بالتفاعل وتكوين الأصدقاء.

وإذا كان لي أن أذكر انطباعاتي العامة عن مدينة الدوحة، فإن الدوحة حتى ذلك الوقت لم تكن مدينة واحدة متصلة الاطراف كما هي اليوم، وأحيائها ما زالت غير متلاصقة ولا متصلة ببعض بالرغم من تطورها في هذا الاتجاه، بل هي فرجان أشبه بالقرى مختلفة عن بعضها بالعائلات التي تسكنها.

فهناك الدوحة الأصلية القديمة من الديوان الأميري الحالي في الغرب تليه الجسرة وسوق واقف وعدد من فرجان الدوحة القديمة مثل براحة الجفيري وفريق البحارنه وفريج النجاهه وفريج الغانم وفريج آل أحمد، وفريج المطاوعة جماعة الشيخ شاهين خطيب وإمام مسجد سوق واقف. ثم تأتي الاحياء الشرقية الشمالية مبتدئة بالمرقاب والعسيري واسلطة والهمتي والخليفات، كلها محاذية للبحر شمال الدائري الثاني اليوم وعلى مسافة بعيدة منه في أغلب الاحياء، الذي يمتد من راس أبوعبود شرقاً إلى شارع الكهرباء غرباً.

ثم تأتي الاحياء الغربية الشمالية وهي البدع والرميلة فقط. وكانت المنازل الكبيرة لأبناء الشيخ علي والشيخ حمد بن عبد الله خاصة، قد بدأت تشيد على طرفي شارع الريان من غرب الديوان. كما خصصت أيضاً أراض وبنيت مساكن

لعدد من العطية على شارع الريان غرب بيت جاسم بن حمد. وإذا كان علي أن أقدر سكان الدوحة وضواحيها في ذلك الوقت فربما بلغوا حوالي ٢٠ ألف نسمة يشكل المواطنون منهم الثلثين على الأقل.

لا أذكر كيف كنت أذهب من منزلنا في الريان إلى المدرسة في الدوحة. ربما كنا نذهب إلى المدرسة بسيارة أحد الأقارب أو أحد أهل الريان وربما تكون هناك سيارة مخصصة لنقل الطلاب. وفي بعض الأحيان في رحلة الرجوع أيام الامتحانات حيث نخرج من المدرسة مبكرين، نتأخر في الدوحة ونمر على مجلس جاسم بن حمد قبل أن يعين وزيرا للمعارف، لتناول الغدا. وكان طعامه لذيفا ودسما ووافرا، وجبة تستحق التأخير من أجلها في الدوحة بعد انتهاء امتحانات المدرسة. وكان الرجل كريما بشوشا ومرحبا بالشباب ربما لأنه كان يقوم بدور من أدوار المعارضة تأييدا لحق شقيقه خليفه بن حمد في ولاية العهد. وقد أخبرني الصديق أحمد بن ناصر العبيدان أن الآلة الكاتبة التي كانوا يطبعون عليها المناشير ضد الانجليز عام ١٩٥٦ كان مصدرها جاسم بن حمد عن طريق خليفه بن عبدالله العطية. وبعد الغداء نقف في شارع الريان ونؤشر على السيارات الداخلة للريان وفي العادة لا ننتظر كثيرا من كثرة سيارات أهل الريان وكرمهم.

كانت الريان في ذلك الوقت مقر الشيخ عبد الله بن جاسم حاكم قطر الأسبق الذي تنازل عن الحكم بترتيب من السلطات الانجليزية لابنه الشيخ علي بن عبد الله بعد ان بدأ تصدير النفط عام ١٩٤٩ وبدأت حاجة سلطات الحماية البريطانية كالعادة إلى حاكم جديد يناسب مهمات المرحلة من وجهة نظرها، ويتبع السياسة المالية والأدارية التي فرضتها على بقية أمارات الخليج ومنها أحيانا قبول مستشار انجليزي على رأس الادارة الحكومية، كما حصل في البحرين سابقا وفي أبو ظبي وعمان لاحقا حيث تم تغيير الحكام.

وجدير بالتأكيد أن ذلك الترتيب لم يحظ بقبول أبناء الشيخ حمد بن عبد الله الذين يعتبرون شقيقهم خليفه بن حمد هو الأولى بولاية العهد بعد والدهم الذي توفي في عام ١٩٤٧، فقد كان والدهم ولي عهد أبيه عبد الله بن جاسم والحاكم الفعلي لقطر قبل وفاته بالرغم من عدم إعلان ذلك رسميا وموافقة سلطات الحماية البريطانية عليه.

وقد استمر الخلاف حول هذه المسألة مما جعل من خليفه بن حمد وإخوانه معارضين يتطلب كسبهم من قبل الحاكم وسلطات الحماية البريطانية، حتى تمت تسوية مشكلة الاستقطاب بين جناحين في الاسرة الحاكمة بمعرفة السلطات البريطانية عام ١٩٦٠. وذلك عندما تولى الشيخ أحمد بن علي ابن الحاكم الإمارة من والده ، وأصبح الشيخ خليفه بن حمد وليا للعهد ونائبا للحاكم .

و يسكن الريان أيضا عدد من آل ثاني لاسيما جاسم بن علي بن عبد الله وأبناء الشيخ حمد وحسن بن عبد الله . كما يسكنها علي بن محمد (بورشيد) المعضادي وعدد من المعاضيد وبعض آل خاطر ، والبورايج .

والبورايج وهم من احتضننا وأحسن ضيافتنا ومنهم محمد وإبراهيم وشاهين وراشد بن سلطان وعلي بن صالح وعبد الله بن أحمد صهر البورايج وزوج شقيقتهم شريفة المسماة على اسم جدتهم وعمة والدي شريفة بنت صالح. وبجانبهم يسكن ناصر بن محمد بو زايد العلي صهر البورايج وزوج شقيقتهم لطيفه بنت سلطان أم غانم . وقد كانت أم غانم ومعها بقية نساء البورايج بالنسبة لي وإخواني بمثابة الأم. وكذلك جيران البورايج وأذكر منهم سيف المحين وعائلة الساحوتي وكانت ربة البيت امرأة يعتد بها وقد أحاطتني برعايتها، ومع الأسف لا أذكر اسمها ولا أسماء من كان يعيش معها. أما رفيقي في الريان فقد كان غانم بن سلطان الهديفي لقرب السن بيننا والقراية.

كان محمد بن سلطان البورايج على وجه الخصوص يصحب والدي دائما ومجلسه مجلسنا، وقد زرت معهما بعض مجالس أهل الريان ومنها مجلس الشيخ عبد الله بن جاسم وكان رجلا مسنا يحظى بالاحترام وكان مجلسه غير مكتظ وفيه فسحة للحديث. و أذكر أيضا أنني زرت مع والدي علي بن محمد المعاضيد وتعرفت على ابنه محمد.

كان والدي كثير الذهاب للدوحة ربما يستطلع الفرص ويخطط للانتقال بعد أن تنتهي المدرسة، ولم يقل لي عن خطته وربما كان أولها أن أذهب للعمل في دخان بعد انتهاء الدراسة ليتفرغ لشئون نفسه فيتزوج بعد أن انتظر منذ وفاة والدي عام ١٩٤٩. ومن ثم ينتقل للدوحة بعد ان يؤمن المسكن والعمل هناك. وقد كان له ذلك بعد أن ذهبت للعمل في شركة نفط قطر في دخان.

بعد أن انتهت المدرسة في الصيف أخذني والدي ومعه محمد بن سلطان الذي أخذ ابن شقيقته غانم بن سلطان الهديفي وكان في مثل سني، لببت الشركة من أجل التقدم للعمل في الشركة. تم قبول غانم للعمل في مسيعيد وأنا تم قبولي للالتحاق بمدرسة الشركة في دخان بعد أن طلب مني مدير الشركة أن أقرأ له من كتاب واكتب رسالة يبدو أنها أعجبه فقرر أن يرسلني لمدرسة الشركة للتدريب على الأعمال الكتابية.

و مما يستحق ذكره أن مسئول الشركة كان يعرض ٥ روبيات يومية لكل الملتحقين الجدد بالشركة وبعضهم مثلي ممن تركوا المدرسة للعمل في الشركة، إلا أنه قرر أن تكون يومياتي خمس روبيات وربيع، وهذا الفرق الضئيل كان له تأثير معنوي علي ومعنى كبير عندما ذهبت إلى دخان وعلم الأقرباء أن الشركة ميزتني برربع روبية ووجهتني للتدريب على الأعمال الكتابية بدل التدريب على النجارة والحداة والأعمال الفنية مثل الكثيرين من تاركي المدرسة في الدوحة والملتحقين الجدد من الشباب الآخرين.

وقد أطلق علي بعض شباب البوكوارة من باب الغيرة لقب "الممثل" وهو التسمية الوظيفية لأعلى مركز في دخان يحمله ممثل الشركة في دخان، ربما لما يلمسونه لدي من طموح يحسدونني عليه أو ما أتمتع به من تميز بسبب معرفتي القراءة والكتابة وحفظ القران الكريم.

وبالمناسبة لم يكن في الشركة سوى شخص واحد حصل على نفس المعاملة قبلي وهو الزميل حمد بن منصور الهاجري ابن منصور بن خليل دليل الشركة وذاكرة قطر الجغرافية والتاريخية، والوجه المشرق لقرية الخطية ودخان عامة.

ملاحظات

١- أنطباعات الذاكرة: صورفي ذاكرة الطفولة: علي خليفه الكواري، العين بصيرة، منتدى المعارف ، بيروت الطبعة الثانية ٢٠١٤، ص٤٦٥-٤٩٢.

انظر ايضا: http://dr-alkuwari.net/sites/akak/files/biography_part_1.pdf

٢- أنظر رسالتي لنيل الدكتوراه : ، على الرابط التالي: ص ٨-١٠.
http://etheses.dur.ac.uk/8012/1/8012_5012.PDF?+UkUDh:CyT

٣- على ما أذكر مساكن أهل الغارية عام ١٩٥٣ من الجنوب للشمال ، تبدأ بما تبقى من بيت علي بن شاهين الذي يسكن وأبناؤه الخريجة وعذبه أكثر من سكن الغارية ، ثم بيت المهندية وبيت أحمد بن علي بن شاهين ومجلس ودكان علي بن خليفه بن عجاج الكبيسي وبيت أخوه الشاعر سالم بن خليفه وعجاج بن ربيعه الكبيسي وإخوانه وهم أيضا يسكنون عذبة أكثر من سكنهم الغارية. يلي ذلك بيت حسن بن جاسم وبيت مطوع الغارية وبيت مرشد وأبنة سالم بن مرشد وفرج وهو نوخذ الصير سفينة علي بن عمران . وبيت عبد العزيز بن علي بن عمران ثم بيت جاسم بن محمد البنيغيث وأخوه خميس ومعهم شاهين وابراهيم بن مبارك . ويأتي بعد ذلك أكبر وأوسع بيوت الغارية بيت علي بن عمران وهو البيت الوحيد الذي يمتد من الساحل حتى الجبل وتسكنه أكثر من عشر عائلات من أبناء علي بن عمران ، وبه مجلسان ومتجر وبجانبه ورشة لصيانة السفن ، يحاذيه من الشمال بيت خالي محمد بن يوسف وأبناء عمه محمد وخليفه بن جاسم بن علي ، يليه من الغرب بيت خالي راشد بن يوسف وبيت علي بن جاسم زوج خالتي لولوه بنت يوسف وابنه جاسم بن علي ، وبيت يوسف وجاسم أبناء خالي محمد بن يوسف وبيت زامل ، وإلى الشرق منهم بيت فهد بن مرشد يليه من الشرق على البحر مجلس وبخار تمر يخص جاسم بن محمد البنيغيث يليه من الغرب بيت ناصر بن رحمة البنيغيث وبيت محمد وصباح بن غيث. ومن الشمال على الساحل بيت جمعة بن راشد وأبنائه سعيد وسلمان وهما أزواج شقيقتي مريم وفاطمة ، وملاصق لهم بيت عليا بنت عيسى الذي يسمى بيت الخويطر وكان يسكنه قبل ذلك صالح بن شاهين كبير البنيغيث . وإلى الغرب منهم بيت محمد ابن خميس وأخيه سلمان بن علي وبجانبه بيت ناصر بن غيث وبيت انتقل إليه خالي راشد بن يوسف وأبنة أحمد بن راشد ، ومن الغرب بيت الجفال وبيت محمد بن عجلان وأبنائه جاسم وحمد ويحاذيهم من الغرب والشمال بيت خالتي حصة بنت يوسف وأبناءها عبد الله وعلي بن راشد وفي هذا البيت تربينا وعاشت شقيقتي لولوه ونجلاء عندما سافرت وأخي يوسف مع والدي للمملكة العربية ، وبعد العودة سكنا البيت المحاذي له وهو بيت هلال بن طارش الذي يحاذيه بيت سعد بن ربيعه ثم هناك ساحة كبيرة تستخدم في الاعياد تحيط بها البيوت حيث يقع بيت سعد بن أحمد وأخيه محمد بن أحمد ، ثم بيت أحمد ابن سعد وأبنائه جابر وأرحمه وإلى الشرق منهم على ساحل البحر بيت حمد بن شاهين وهو زوج بنت عمتي ميرة بنت ناصر وفي الشمال بيت ماجد وهلال بن عبدالله وبيت العفصان وفي الشمال بيت سالم بن حمد وصهره علي بن جهام وأخيرا بيت جديد لسالم بن أحمد وبيت مبارك بن عجلان وارض فضاء على البحر حجزها والدي بقصد البناء عليها واستمرت حتى تملكها بلدية الشمال في حوالي ١٩٨٥ مع بيت والدي ومجلسه في جنوب الغارية.

٤- علي خليفه الكواري ، تنمية للضياع ! أم ضياع لفرص التنمية ؟ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٩٦ ، (صفحة ٢٠١-٢٢٨).

٥- هذه هي الغارية حسب ما تسعفني الذاكرة ، لعل من يتذكر أفضل مني ان يصحح ما لم تحتفظ به ذاكرتي بعد ستين عام . وسوف أسعى بمساعدة من يرغب لرسم مخطط لكل معالم الغارية ، مساكنها وساحاتها ومدخلها والمساجد والمتاجر فيها. فقد كانت الغارية نموذجا لقرى قطر قبل عصر النفط .

٦- British Residency, 22 Oct 1952, Confidential 53/23/52. Paragraph 1-7

٧- British Residency, 22 Oct 1952, Confidential 53/23/52. Paragraph 8-9

٨- أنظر رسالتي لنيل الدكتوراه : ص ١٤٩-١٦٨ ، على الرابط التالي:

http://etheses.dur.ac.uk/8012/1/8012_5012.PDF?+UkUDh:CyT

٩- مصطفى مراد الدباغ، قطر: ماضيها وحاضرها، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الاولى ١٩٦١. ص